هل تتجه الجزائر نحو مجتمع مغلق ؟
قراءة نقدية في دراسات سوسيولوجية
حول التدرج الاجتماعي في المجتمع الجزائري

الدكتور إدريس بولكعيبات
رئيس قسم علوم الإعلام والاتصال
جامعة منتوري ــ قسنطينة

ملخص:

يتـــناول هـــذا المقال بالتحليل و النقد دراسات سوسيولوجية كانت قد أجريت على فترات متقطعة خلال الأربعين سنة الماضية . و مع أن تلك الدراسات لم تغط الواقع الاجتماعي الجزائري بكل تفاصيله المعقدة ، إلا أن نتائجها تصب في مجرى واحد وهو : أن خطاب السلطة الذي جعل من" التغيير" برنامجا للعمل على امـــتداد عقود لم يكن يعكس واقعا فعليا يتصف بالديناميكية بل أنه كان مجرد أداة من أدوات التلاعب بالعقول و الهيمنة .

Résumé :

Dans cet article, l'auteur présente une lecture analytique et critique de quelques études sociologiques sur la formation des classes sociales. Ces études réalisées dans des périodes différentes, bien qu'elles ne reflètent rigoureusement la réalité sociale algérienne avec toutes ses dimensions on peut en tirer une conclusion frappante. D'une part, le pouvoir politique Développait un discours basé sur un mot d'ordre ' le changement ', d'autre part la réalité sociale montrait une résistance en développant une logique qui mènent vers une société bloquée. Est –ce l'innocence de l'utopie ou bien la manipulation pure et simple ?

مقدمة :

أجريت دراسات سوسيولوجية حول الطبقات الاجتماعية في الجزائر منذ عـــام 1961 . إلا أن هـــذه الدراسات تناولت الطبقات الاجتماعية بشكل عام وظروف تكوينهـــا و كان ذلك مساهمة في خلـــق تراكم معرفي حـــول مـــسألة التدرج الاجتماعي في الجزائر و المعايير التي يمكن اعتمادها لبناء واقع هذا التـــدرج .

هـــذه الدراسات هي دراسة بيير بورديو و دراسة رونيه غاليسو و دراسة مغنية الأزرق و دراسة محمد بوخبـــزة و مقاربة علي الكنز .وتتعامل كل من هذه الدراســـات مع واقع اجتماعي معين ما لبث أن تغير. فمن دراسة بيير بورديو إلى الطـــرح الذي عرضه علي الكنز، حدث حراك اجتماعي ظاهري من جراء ظهور عـــوامل سياســـية ، حيث انتقلت الجزائر من المرحلة الكولونيالية إلى مرحلة بناء الدولـــة الوطنـــية التي تميزت بتطبيق تجارب في الإصلاح الاقتصادي كان لها الأثر الـــبالغ علـــى الـــنزوح من الريف إلى المدينة و على الحراك المهني من الزراعة إلى الـــصناعة ، بـــسبب ظهور مراكز للاستقطاب أو الجذب وعدم التوفيق في ترجمة شـــعار " التوازن الجهوي ". فما جرى على الأرض كان مخالفا تماما لمحتوى ذلك الخطاب المثقل بالوعود و الدعاية.

لكـــن هل أدت هذه العوامل إلى إثارة حراك اجتماعي فعلي أم أنها أدت إلى حالة من إعادة إنتاج المجتمع على نحو معين ؟

1- بورديو والمعايير المهنية:

في عـــام1961 ، أي قـــبل استقلال الجزائر بسنة واحدة أنجز بيير بورديو بمعـــية الين ديربال *Alain Durbel* و جون بيير ريفت *J.P.Rivet* و كلود سابل *Claude Sapel*دراســـة بعـــنوان : العمـــل و العمـــال فـــي *الجزائر* *Travail et ravailleurs en Algérie*. و مـــا يهمنا في هذه الدراسة هو الفصل الثاني منها الـــذي كتـــبه بيير بورديو تحت عنوان "خطوط عريضة للطبقات الاجتماعية *un Esquisse pour tableau des classes sociales* ". وحـــاول بورديو في

هذا المقال ضمن هذه الدراسة أن يحدد المعايير التي تسمح بالتمييز بين الطبقات الاجتماعية. و قد حددها في أربعة معايير هي: (1)

- نـــوع القطـــاع الاجتماعـــي الذي يشتغل فيه الفرد , أي الاقتصاد الحديث أو الاقتصاد التقليدي. - مدى الاستقرار في المهنة . - نوع النشاط , أي ما إذا كان يدويا أم غير يدوي . - درجة التأهيل أو مستوى التعليم .

- نـــوع القطـــاع الاقتـــصادي : يميز عادة الباحثون في الاقتصاد الجزائري بين قطاعين : القطاع التقليدي و القطاع الحديث .فالأول يشير إلى النشاط الاقتصادي الـــذي كان سابقا على دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائـــر و الذي استمر في ظل الاحتلال ,حيث لم يتمكن من تدجينه لارتباطه بالبنية الاجتماعية و الثقافية. ففـــي الفلاحـــة , رغـــم استيلاء المعمرين على الأراضي الجيدة . ظل الجزائريون يـــسيطرون علـــى 7.672.000 هـــ (2) . دخل الفرد في الفلاحة التي كان يعيش علـــيها 7 ملايـــين لا يزيد إلا بقليل عن متوسط دخل الفرد في الهند خلال الفترة الاستعمارية (3) . والواقع أن القطاع التقليدي يشمل أيضا الرعي في المناطق الـــسهبية و الحـــرف في المناطق الحضرية ,و هذه الأشكال من النشاط لا تزال مستمرة.

أما الثاني فيشير إلى النشاط الاقتصادي الذي كان تحت سيطرة المعمرين . الجزء الأهم منه زراعي , إذ كان 25.000أوروبي يسيطرون على 2.720.000 هـــ (4) و يمارسون زراعة تهدف إلى التصدير كـــزراعة الكـــــروم . و الحمضيات , ثم توســـع هذا النشاط خلال الحرب العالمية الثانية إلى الصنـــــاعة و الخدمات في المـــناطق الحـــضرية . و هو قطاع حديث بمعيار أسلوب إدارة النشاط و استغلال الموارد.

هـــذه الثنائية في الاقتصاد الجزائري نتجت عنها كما يقول بورديو فروق معتـــبرة في الـــشروط الماديـــة لحـــيـــاة العمـــال , و في مـــواقفهم الاقتصادية و الإيديولوجـــية, و التي يمكن وصفها بأنها تؤدي إلى تشكل مجتمعين منفصلين؛ لكل أسس خاصة به في التدرج(5).و بالرغم من أن القطاع التقليدي مازال

مستمرا بكل صوره إلى حد الآن ، إلا انه من غير المفيد اعتباره مقياسا للتدرج الاجتماعي اليوم . إذ أن بعض الحرف تحول أصحابها إلى برجوازية صغيرة, كما أن أصحاب الأراضي الفلاحية التي تستغل بطرقة تقليدية, أصبحوا هم أيضا أفضل حالا من الذين يشتغلون في أراضي القطاع الحديث , كعمال أجراء , خاصة بعد أن فشلت تجارب الإصلاح التي تعرض لها هذا القطاع .

- الاستقرار المهني : ولعل هذا المعيار وليد وضع اقتصادي ظرفي , ففي المرحلة التي أجرى فيها بورديو دراسته كان العمال الجزائريون سواء في الزراعة أو في الصناعة يعانون من عدم الاستقرار في العمل ,حيث كان أغلبهم يعمل عملا موسميا . ففي عام 1954 , أحصي 500 ألف عامل زراعي جزائري , لم يكن بينهم سوى 170 ألف عامل دائم (6) . و ما يشير إلى أن هذه الظاهرة كانت ضاغطة على عمال الفلاحة في تلك الفترة شهادة عامل زراعي ذكرها " ميشال لوين " في كتاب "الفلاحون الجزائريون"؛ حيث قال : " إذا كسرت محراثا : تطرد و تشكوا للقاضي , لكنك تخسر في كل مرة(7) "

لكن المرحلة التي بدأت مع الاستقلال و خاصة خلال مرحلة التصنيع غيرت الكفة لصالح العمال الدائمين ؛ حيث أصبحوا أكثر عددا . و لم يشكل الخوف من عدم الاستقرار هاجسا للعمال الجزائريين إلا بعد تخلي الدولة عن لعب دور الدولة المشغلة في السنوات العشر الأخيرة. و مع ذلك فان ظاهرة العمل الموسمي تحجمت إلى الحدود الدنيا لدرجة أنه لا يمكن اعتبارها معيارا للتدرج الاجتماعي.و قد ارتبط اسم بورديو بالمقاربة المنهجية الداعية إلى تناول الظواهر بحسب الحقول التي يمكن أن تنتمي إليها و من هذه الزاوية يمكن القول أن معياري القطاع الاقتصادي و الاستقرار في العمل يعبران عن الحقل الاقتصادي.

- نوع النشاط الذي يقوم به الفرد , و هنا يميز بورديو بين العمل اليدوي
- و العمل غير اليدوي؛ و نلاحظ من خلال تبني هذا المعيار مدى تأثره بالفكر الهيغلي . إذ يرى أن " العمل اليدوي يضع صاحبه في مواجهة

المـــادة الـــتي تقاومه و التي لن يكون له مـــن موقف إزاءها سوى واقعـــية التقني"(8). و قد كان هيغل يرى أن " العمل ينفي الطبيعة. و لكـــن الإنـــسان على خلاف الحيوان الذي يلبي رغباته بالتهام الموضوع ,يـــبدل طبـــيعة الطبيعة و يغيرهـــا و يحولها .الحيوان يبيد الطبيعة و الإنسان يعيد خلقها بإضفاء الحلة الإنسانية عليها.(9) أما النوع الآخر من النـــشاط فهو العمل غير اليدوي.و لا أعتقد أن بورديو يقصد به العمل الفكـــري؛ مـــثلما هـــو الحال عند غرامشي. فمن يمارس هذا النوع من النـــشاط عـــنده يتمـــتع بحد أدنى من التعليم. و لعله يقصد بذلك الذين يـــشرفون علـــى العمل اليدوي في المؤسسات, أي الذين يقومون بمهمة التنظـــيم .ويبدو أن هذا النوع من النشاط تغير منذ أربعين سنة , أي منذ أن أجـــرى بورديـــو دراسته . فالذين يتولون مهمـــة التنظيم و العمل المكـــتبي , أصبحوا أكثر تكوينا ,و مستواهم التعليمي لم يعد " الشهادة الابتدائـــية " الـــشهيـــرة في الخمـــسينيات و الـــستينيات . إذ أن أهم السياسات التي اتبعت بعد العام 1962 , كانت تعميم التعليم.

- درجـــة التأهيل أو مستوى التعليم : يقول بورديو إن" تأثير التكوين أو التأهيل لـــيس حاسمـــا إلا في القطـــاع الحديث, أي الإدارة و الصناعةبشكل خاص؛ الـــصناعات الميكانيكـــية , الطاقة ,التعدين, أما القطاع التقليدي فعلى العكس, إذ يسمح للأفراد بالإفلات من سيطرة الدبلوم" (10).

و يبدو أن هذا المعيار له علاقة بالمعيار الثالث فكلاهما يرتبط بالتكوين . و عليه يمكـــن تصنيفهما ضمن ما يسميه بورديو الحقل الثقافي، إلا أن بورديو غيب الحقل السياسي للتدرج الاجتماعي,و ربما لأسباب إيديولوجية بالدرجـــة الأولى .

بالرغم من أن الظرف الذي أجريت فيه الدراسة يلفت الانتباه إلى . وجود عملـــية ظاهرة لقلب علاقة السيطرة بين الأهالي و المستوطنين من خلال حرب التحريـــر .فالانتماء إلى هذا الطرف أو ذاك ، يوحي بتدرج اجتماعي مبدئي. فقد كان المجتمع الجزائري قبل عام 1962 شبه طائفي .و وفق هذه المعايير,فان بورديو بنى أربـــع طبقات اجتماعية في الجزئر على النحو التالي: (11)

- حـــثالة البروليتاريا Les sous prolitaires و تضم هذه الطبقة العمال الذين لم يـــتلقوا أي تعليم , و هم في الغالب مهددون بفقدان مناصب العمل في أيـــــــة لحظة .

- الـــبروليتاريا و تضم العمال المهرة في القطاع الحديث و يقول بورديو أن هذه الطبقة تشكل (النخبة العمالية).

- طبقة عمال القطاع التقليدي و تضم , البرجوازية التقليدية الوريثة لمؤسسات نـــصف صـــناعية , و تـــضم أيضا البرجوازية التجارية . و يقول بورديو أن التجارة تشـــكل " المنفى للعمل التقليدي " .

- طـــبقة الـــذين يقومـــون بأعمال غير يدوية في القطاع الحديث و لهم مستوى تعليمـــي. و هذه الشريحة تشكل حسب بورديو" برجوازية صغيرة" وتضم هذه الشريحة الموظفين الإداريين و الوظيف العمومي أي البيروقراطيين.

و أرى أن هذا التصنيف هو محاولة تمثيل جانب من واقع الفترة التي أجريت فيها الدراســـة. فالطـــبقات الاجتماعية الأربعة التي تحدث عنها بورديو زال بعضها و ظهـــرت طبقات اجتماعية أخرى , بحكم الحراك الاجتماعي و المهني الذي عرفه المجتمع الجزائري بعد الاستقلال .

و إذا كانت هذه هي الملاحظة العامة حول هذا النموذج , فان ما يلفت الانتـــباه أكثر هو وضع الطبقة الاجتماعية الرابعة .فهذه الطبقة تتشكل من الذين يعملـــون في القطـــاع الحديث, و يمارسون أعمالا غير يدوية أي أنهم يقومون بأعمال ذات طابع إداري سواء كانوا إطارات متوسطة أو إطارات سامية.

و يـــزعم بورديـــو أن هؤلاء يشكلون طبقة البرجوازية الصغيرة في المجتمع الجزائـــري؛ وقـــد يكـــون محقا . ففي تلك المرحلة من التاريخ كان الأوروبيون يـــشكلون البرجوازية الوحيدة للبلاد. أما فئة الجزائريين الذين لهم مستوى تعليمي و تموقعوا في الإدارة، فإنهم كانوا يمثلون موقعا أفضل من غيرهم من الجزائريين، قد يكونـــون بـــرجوازية صغيرة بالنسبة لتلك المرحلة التي كان فيها البؤس الاقتصادي و الاجتماعـــي ظاهـــرة عامـــة تمس الأغلـــبية الساحقة من الجزائريين . إلا أن

الوضـــع اخـــتلف بعد الاستقلال,حيث اتسعت هذه الطبقة بعد انسحاب الإدارة الاستعمارية. و بدت و كأنها تتجه نحو التنوع في شرائحها.

2- غاليســـــــو *René Galissot* والتدهور الطبقي :

يعـــد رونـــيه غاليسو من الباحثين الفرنسيين الذين اهتموا في دراساتهم بـــشمال أفريقيا, و قد كان نصيب الجزائر من هذه الدراسات وافرا. ومنها مقاربةحول الطبقات بعنوان : " الطبقات الاجتماعية , الدولة و التنمية في الجزائر مـــنذ الاستقلال *Classes sociales et développement en Algérie depuis L'indépendance*" (12). و قد تناول غاليسو الموضوع على صورة مقاربة تاريخـــية . إذ تطـــرق إلى العـــوامل الـــتي أثرت على الطبقات خـــلال المرحلة الكولونيالية و كذا منذ قيام الدولة الوطنية.

أ- سياســـة التفقير في الحقبة الكولونيالية : يرى غاليسو أن الاستعمار فـــي الجزائر عمل بطريقة معاكسة لتلك التي اتبعها في شرق آسيا .ففي الجزائر انتزع ثلاثـــة ملايـــين هكـــتار من الأراضي الفلاحية. إلا أن التفقير عن طريق ســـن الـــضرائب لم يكن أقل حدة . فقد أدى إلى الإفلاس الجماعي للأهالي .و ترتب عن هذه السياسة ثلاث نتائج : (13)

-أن البرجوازية الجزائرية أصبحت محدودة العدد , و نوعت نشاطاتها , ووجهت أبـــناءها نحـــو المهن الليبرالية ؛ مما أعطى قيمة اجتماعية للعلم و المعرفـــة . و يقول غاليسو أن التحليل لأصول الإطارات الجزائرية في الوزارات أو الشركات الوطنـــية تسمح بالعثور على الأسر التي كانت لها القوة المالية و التجارية خلال الحقبة الاستعمارية.

- إن الـــتفقير مس أيضا البرجوازية الصغيرة . ففي عام 1966 أحصي 180 ألف فرد من هذه الطبقة , بين حرفي و تاجر.

-الوضع الصعب للبروليتاريا في وجود أعداد كثيرة من العاطلين عن العمل و قـــد أدت هذه الظاهرة إلى مـــا يسميه غاليسو" التدهور الطبقي Le déclassement "وحـــتى أولئك الذين يشتغلون في الفلاحة يصنفهـــــم غاليسو

ضـــمن هـــذه الطـــبقة.إذ يقول:" في الجزائر لم يعد هناك وجود للفلاحين :إن الفانونيةFanonisme مجرد وهم.و ما هو موجود هم مرشحون لأشكال متنوعة من العمل المأجور .

ب- مـــرحلة الدولـــة الوطنـــية:و هي مرحلة عرفت فيها الجزائر تغيرات نتيجـــة ظهور سلسلة من التجارب ؛ منها التسيير الذاتي و سياسة التصنيع المكثف و تجربة ما سمي بالثورة الزراعية و ظهور رأسمالية الدولة .

و في ضوء هذه العوامل يميز غاليسو بين أربع طبقات اجتماعية هي:

-الأجـــراء في الفلاحة, و قد تشكلت هذه الطبقة من العمال الذين اشتغلوا في مـــزارع الكولون قبل الاستقلال.و كذا بعده عندما بدأت تجربة التسيير الذاتي مع الهجـــرة الجماعية للكولون. و يقول غاليسو بشأن تركيبة هذه الطبقة : " ان الأمر يـــتعلق بعمال فلاحين قرويين من التشكيلة النقابية و ليس حركة فلاحية ... و بحددا يتأكد بوضوح العمل المأجور" (14).

الأجراء في الصناعة و البناء , ويقول غاليسو إن:" بطء أو ضعف النمو في التوظيف الـــصناعي ,بـــسبب تطبيق التخطيط الذي لم يتجه إلى التصنيع إلا في مرحلة ثانية بعـــد أن أقيمت منشآت الصناعات الثقيلة التي لم تفتح أبوابها الا لبضع آلاف من العمال" (15).

و عليه كان العمال في الصناعة يتمركزون أكثر في البناء و الأشغال العمومية .

-أصـــحاب الأعمـــال الحرة ,و هي طبقة البرجوازية الصغيرة , و هي الطبقة التي تـــشكلت في القطـــاع الخـــاص .و يقول غاليسو أن هذه الطبقة توجد في وضع الأقلـــية. أمـــام ترقية الشرائح الاجتماعية في قطاع الخدمات و الوظيف العمومي . (16)

- طـــبقة البيروقـــراطيين التي تضم الذين يعملون في قطاع الخدمات,من موظفين و سياســـيين .و يـــرى غاليســـو أن البيروقراطية في الجزائر تعود أصولها في أغلب الحـــالات الى أولـــئك الذين استفادوا من التعليم بالفرنسية. و أن المدرسة تذكر بالأصـــول الـــبرجوازية للبيروقراطية (17).ونلاحظ أن الطبقة الرابعة عند غالسيو جمـــع فيها بين الذين يصيغون القرار و أولئك الذين يشرفون على تطبيقه.أي أن

نمـــوذجه لا يميز بين الطبقة الوسطى الجديدة و الطبقة العليا .و أن الطبقة الوسطى عنده تنحصر في صغار التجار و هي الطبقة الوسطى القديمة عند رايت ميلز .
و علـــيه يبدو هذا النموذج الذي يعود الى العقد الثامن من القرن العشرين غير مناسب لاستيعاب الواقع الاجتماعي الحالي .

ولعـــل أهم شيء في مقاربة غاليسو هو لفت الانتباه إلى ظاهرة" التدهور الطبقي Le déclassement حيث أشار إلى تفقير البرجوازية الصغيرة , و انحدارها إلى صـــف البروليتاريا ,نتيجة التحارب التي قامت بها السلطة في تلك المرحلة؛ في مسعى لاستنهاض تنمية .و في الفترة التي طرح فيها غاليسو مقاربته كانت الطبقة الوســـطى الجديـــدة في طـــور التشكل من خلال تنامي الحاجـــــة إلى مسيرين و بيروقراطيين في ظل التسيير الإداري للاقتصاد .و لعل السعي للسيطرة على القـــرار في المؤســـسات الاقتـــصادية التي أنشأتها الدولة بين شرائح مختلفة للطبقة الوســـطى أدى إلى خلـــل في وظيفة هذه المؤسسات ؛ حيث لم تعط نتائج اقتـــصادية ,بل تحولت إلى فضاء لهيكلة المجتمع لإضفاء الشرعية على السلطة السياسية بالدرجة الأولى .

3- مغنية الأزرق والآلة البيروقراطية:

ظهرت دراسة مغنية الأزرق " نشوء الطبقات في الجزائر"عام 1975 باللغة الإنجليزية, أما الطبعة العربية الأولى فلم تظهر إلا عام 1980.
و ترى مغنية الأزرق في هذه الدراسة أنه :" في حالة الجزائر يمكن أن تعرف الطبقة علـــى أســـاس تملك وسائل إنتاج و أسلوب تملك قوة العمل ،و لا يؤخذ الوعي الطبقـــي هـــنا كمعيار في التعريف. لأن ظهور هذا المفهوم يتوقف علـــى توفر القنوات التي تتيح التعبير عن المصالح الطبقية و النصوص القانونية فيما يتعلق بحرية إقامة التنظيم السياسي"(18).و تبدو النزعة الماركسية واضحة على تعريف مغنـــية الأزرق , بالـــرغم من أنها حاولت أن تدخل نوعا من المرونة على المفهـــوم الماركـــسي – ليستجيب لخصوصية الواقع الاجتماعي الجزائري , فقد اســـتبعدت عنصر الوعي في تشكيـــــل الطبقة , لتبسيط المشكلة . إذ أن هذا العنـــصر خلق تعقيدات نظرية في تناول الطبقات الاجتماعية .وعلى اعتبـــار أن

الباحثة انطلقت في تحليلها من هذا الأنموذج الإرشادي " براديغم " , فإنها ركزت علـــى ما تسميه بالطبقة المهنية و حددت من أجل تحسس أثر هذا المفهوم في الواقع الجزائري أربعة مؤشرات هي : (19)

- الـــسيطرة علـــى ملكـــية وسائل الإنتاج.- دور مهيمن في التنظيم و التوزيع الاقتصاديين لفائض القيمة .

-دور مهيمن في التشذيب الإيديولوجي . - دور مهيمن في صنع القرار السياسي .و هـــذه المؤشـــرات يمكـــن تحسس وجودها من خلال تجارب التنمية التي شـــهدتها الجزائر بعد الاستقلال . إذ اتجهت بالاقتصاد نحو السيطرة الجماعية و التأمـــيم أي ظهـــور مـــا يعرف بـــ " برجوازية الدولة" التي تعتمد على جهاز بيروقراطي ضخم , و قد ركزت الباحثة في دراستها على تشكل البيروقراطية الجديـــــدة التي ظهرت بعد الاستقلال.و تتبنى مغنية الأزرق بنية البيروقراطية المفترضة في الجزائر عام 1963 , و التي صاغها " ايان كلـــيغ Ian Clegg " الذي كـــان قد أجرى دراسة هو بدوره عن تجربة "عمال التسيير الذاتي في الجزائر Workers self management in Algeria" و تتشكل هذه البنية من :

أ-محافظين , أمناء عامين , مديري مجالس ....الخ

ب- مشرفي مكاتب , أفراد (ذوي) مهارات.ج- سعاة .(20)

و الملاحظـــة الـــتي يمكن إبداؤها حول هذه البنية أنها لا تميز بين شرائح البيروقراطية , إذ تفترض أن الإطارات السامية و المتوسطة تتمتع بتجانس داخلي فـــيما بينها ؛ على الرغم من وجود فروق كبيرة بين هذين المستويين من السلـــم الإداري .و إذا أخـــذنا في الاعتبار مؤشري : الدور المهيمن في التنظيم و التوزيع الاقتصاديين لفائض القيمة و الدور المهيمن في صنع القرار السياسي وهما مؤشران علـــى وجـــود طـــبقة مهيمنة ، فإننا نجد أن نصيب هاتين الشريحتين من توزيع فـــائض القيمة غير متكافئ. كما أن مسألة التأثير على القرارغير متكافئة هي الأخرى بين الشريحتين . فالإطارات السامية تشارك في صنع القرار بينما الإطارات تـــشرف علـــى تنفيذ القرار . و الملاحظة الثانية هي أن تحليل مغنية الأزرق , لا يعكس كل الواقع الجزائري . فالنموذج الذي تبنته الباحثة يقترب من النموذج

البيروقراطي الستاليني .وهو نموذج لم يتمظهر في كل حقول النشاط الاجتماعي و السياسي و الاقتصادي في الجزائر,حتى في المرحلة البومدينية التي تميزت بالتخطيط و التوجه الواضح نحو دولة مركزية .و تجربة التسيير الذاتي التي اعتمدت كأساس لتحليل النموذج الجزائري كانت تجربة قصيرة العمر كما أنها لم تشمل إلابجالات محدودة في الاقتصاد . و لعل أهم ما أثارته الباحثة في هذه الدراسة هو تأكيدها أنه " في حالة الجزائر ,فان بيروقراطية الدولة تستخدم كأداة للإنتاج الطبقي و إعادة الإنتاج الطبقي على السواء " (21).

و معنى ذلك أن الباحثة تعتبر بيروقراطية الدولة في الجزائر آلة لمنع الحراك الاجتماعي ,حيث تحول دون حصول الأفراد على تكافؤ في فرص تحسين أوضاعهم و الصعود في السلم الاجتماعي , أي عكس السياسات المعلنة التي تشارك في صياغتها بيروقراطية الدولة . إلا أن الباحثة لم توضح الآليات التي تجعل من الإدارة أداة لإعادة الإنتاج الطبقي . و لعلها قامت من خلال هذه المقاربة بإسقاط النموذج البيروقراطي الذي كان مهيمنا على دول أوروبا الشرقية قبل انهيار جدار برلين على الجزائر . فقد عرفت تلك الدول ركودا في بناها الاجتماعية و الاقتصادية .قبل إعادة صياغة أنظمتها السياسية و الاقتصادية ثم أن الفترة ما بين أجراء مغنية الأزرق لدراستها و تبلور صياغة النظام القائم على البيروقراطية في الجزائر ابتداء من العام 1967 كانت قصيرة. إذ لا تبدو هناك إمكانية لإصدار حكم على إعادة إنتاج الطبقات الاجتماعية لنفسها , و على الامتناع عن الحراك الاجتماعي, في فترة أقل من جيل .مما يدل على أن الحكم الذي أصدرته مغنية الأزرق لا يستند إلى واقع فعلي.و إنما هو توقع لما يمكن أن يحصل لاحقا .

4- محمد بوخبزة والمجموعات الاجتماعية :

قام محمد بوخبزة بدراسة موضوعها " القطيعة و التحولات الاجتماعية في الجزائر *Ruptures et transformations Sociales en Algérie* ".و غطت هذه الدراسة الفترة الممتدة ما بين 1950 و 1980 . وسلطت الدراسة الضوء على الفوارق بين الشرائح الاجتماعية , إذ يقول محمد بوخبزة :

" يجـــب أن يكون المرء أعمى لينكر وجود فوارق اجتماعية في الجزائر ,قبل أو أثـــناء الاستعمار و كذا بعده . لأن المستعمر خلال سيطرته لم يفعل سوى إذكاء حدة الفوارق و التمايز في المجالات الثلاثة : الاقتصاد و الثقافة و السياسة" (22).

و يتجـــنب محمـــد بوخبزة استعمال مفهوم " الطبقة "؛ إذ يقول:"قررت اســـتعمال مفاهيم أريدها أن تكون محايدة أكثر ليس لها لون و أقل غموضا , إنني أتحدث عن مجموعات اجتماعية Ensembles Sociaux و شرائح مسيطرة أو تحت السيطرة "(23) .

و تجـــنب استعمال مفهوم " الطبقة" و استبداله بمفهوم" المجموعات الاجتماعية" لن يغير من الأمر شيئا.

فالتعقيدات التي تواجه الباحث عند استخدامه للمفهوم المقترح ستظل قائمـــة, طالما أن مدلولـــه لا يختلف عن الطبقات. إذ نجد أن محمد بوخبزة يقول:" إذا كانت الطبقات الاجتماعية في ذاتها موجود ة في كل المجتمعات, فكلما كانت هناك سلطة هناك تدرج اجتماعي و تقسيم اجتماعي للعمل؛ أما الطبقات لذاتها واعـــية لأوضـــاعها ومـــوقعها , فإنهاغير موجودة إلا إذا توفرت مجموعة من الـــشروط. هذه الشروط تتعلـــق بمختلف السلطات و شرعيتها و التي تتحقق في الحقل الاقتصادي و الثقافي "(24) .

و يبدو أن تجنب بوخبزة استعمال مفهوم " الطبقة " يعود لهذا السبب, أي الخـــوف مـــن عـــدم تحقـــق " الطبقة لذاتها" ,لأن ذلك يتطلب توفر مجموعة من الشروط,منها إمكانية تعبير الطبقات عن وجودها و إيديولوجياتها . و في الظرف الـــذي أجريت فيها الدراسة كان شعار السلطة في الجزائر هو " وحدة الفكـــر و التـــصور" الذي يعني منع الطبقات الاجتماعية من التفكير لنفسها و امتلاك وسائل التعـــبير عن ذلك. فقـــد كانت الطبقة الوسطى بمختلف شرائحها وكذا الطبقة البرجوازية مضطرتين لتجنب إظهار أيديولوجيات مضادة للأيديولوجية الرسمية.

و يمكـــن تفـــسير ذلك السلوك وفق نظرية نويل نيومان E Noël Newmann التي كانـــت ترى أن الأقلية تضطر لالتزام الصمت,خوفا من أن تجد نفسها في عزلة(25

). و بالـــتالي كان من الصعب في تلك الظروف علـــى الطبقات الاجتماعية أن تعبر عن اتجاهاتها و أفكارها.

وفي رأيـــي أن محمـــد بـــو خبزة و مغنية الأزرق يتفقـــان حول هذه المســـألة ،فالأول تجنب استخدام مفهوم الطبقة لتفادي التعقيدات التي يمكن أن تتـــرتب عـــن الـــتعامل مع مفهوم " الطبقة لذاتها " لأن إمكانية تعبير الطبقات الاجتماعـــية عـــن ذاتها في الجزائر , لم تكن متاحة .أما الثانية فقد استخدمت الطبقة بمفهومها الماركسي , إلا أنها أعلنت بصراحة أنها تستغني عن مفهوم (الطـــبقة في ذاتها) ؛ لأنه غير مناسب في مجتمع مثل المجتمع الجزائري. فالإشكال الذي واجه الباحثين ،إذا ،هو عدم توفر إمكانية التعبير عن أفكار أو إيديولوجيات مـــتعددة في ظـــل دولة توليتارية . إلا أن هذه الحواجز لم تعد قائمة منذ إقرار التعددية من خلال دستور فبراير 1989 .

و قـــد حـــاول بوخبـــزة في دراســـته البحث ما إذا كانت الطبقات الاجتماعية أو المجموعات الاجتماعية -كما يسميها- قادرة على إعادة إنتاج نفـــسها, أي هـــل هـــي في تواصل أم هناك انقطاع ؟.و ما إذا كانت الهوة بين الطبقات الاجتماعية في اتساع أم في نقصان .

لعـــل أهم نتائج دراسة محمد بوخبزة هي التأكيد على أنه : " بين مجموعات القمة و المجموعات التي تليها ظهرت فجوة .و الحقيقة أنه بين 1959 و 1979 , ازداد متوسط دخل الفرد بوتيرة تزيد عن 12 % سنويا لدى الإطارات الساميـــة في حـــين أن هـــذه الـــوتيرة تـــتجـــاوز بـــصعوبة 8 % لدى الإطارات الـــمتوسطة , أما مستوى العمـــال المـــؤهلين فأقل من ذلك) (26).

و هـــذه النتـــيجة معاكسة لمضمون الخطاب السياسي في تلك المرحلة, حيث كان يدعو إلى تقليص الفوارق الاجتماعية بين أفراد المجتمع .و هذا الاتجاه نحـــو الاتـــساع في الفـــروق , يلاحـــظ أيضا على مستوى توزيع الطبقات الاجتماعية , إذ يقول بوخبـــــزة أن الطبقات الاجتماعية في السبعينيات كانت موزعة على هذا النحو (27):

-الفقراء 54,8 %

-متوسطو الحال 18,7 %

-ميسرو الحال 26,5 %

و يعلق على هذا التوزيع العددي للطبقات الاجتماعية بالقول :"من خلال هذه الأرقام يلاحظ بعض الظواهر الدالة على التخلف:قبل كل شيء الضعف الكبير في القاعدة الديموغرافية لما يطلق عليه الطبقات الوسطى "(28).

و يخلص الباحث إلى نتيجة مفادها :"حصول بعض الاستقطاب الاجتماعي . في الأعلى: الإطارات السامية, المهن الحرة ، المقاولون الخواص , فقد شكلوا أقل من 3 % من السكان عام 1979.و هم يحصلون على قسم مهم نسبيا من الفائض الاقتصادي . و في الأسفل يوجد الذين ليس لديهم عمل و الذين يحصلون على تحويلات عمومية منح – تقاعد – منح عائلية) (29).إن هذا الاستقطاب وضعف الطبقات الوسطى التي تعتبر مجموعات عازلة هي العوامل التي تغذي الصراع بين المجموعات الاجتماعية , حسب الباحث . إلا أن بوخبزة لم يهتم بحالة الطبقة الوسطى نفسها , و إنما تناولها بصورة غير معمقة ،على اعتبار انه درس بشكل أساسي التحولات في بنية المجتمع الجزائري .

5- علي الكنز و المثقف المنفصل :

قدم علي الكنز مقاربة حول الطبقة الوسطى في الجزائر تحت عنوان "معطيات لتحليل الانتليجانسيا في الجزائر". و قد أورد هذه المقاربة في كتابه (حول الأزمة).و في البداية طرح علي الكنز مسألة شروط وجود الانتليجانسيا قبل تناول الأشكال الامبريقية لانتشارها في المجال الاجتماعي و الزمن التاريخي . و في هذا الشأن يميز علي الكنز بين صنفين من المثقفين : (30).

1-المثقفون الذين يعيشون في وسط مغلق .وهؤلاء في نظر علي الكنز لا يشكلون انتليجانسيا ؛و ذلك مهما كان إنتاجهم. نفس الشيء بالنسبة لجماهير المتخرجين و أصحاب الشهادات الجامعية الذين لا يكونون مثقفين و من

بـــاب أولى لا يكونون انتليجانسيا , اذا لم تفعل المعرفة المتراكمة فعلها في النظام الدلالي الرمزي للمجتمع.

2-المـــثقفون(العضويون) : و هم المثقفون الذين لهم قدرة على إنتاج و إعادة إنتاج معنى اجتماعي, أي نسق من أفكار ذات دلالات اجتماعية في مقدورها ، تكوين و توجيه كل أو جزء من المجتمع المدني الذي يتوحد فيه هذا النسق ,أي أنها تساعد على توجيه ممارسة اجتماعية .

و نلاحـــظ مـــن خـــلال هـــذا المنظور الذي أختاره علي الكنز في تحليله لتشكل الانتليجانسيا في الجزائر تأثره الكبير بنظرية أنطونيو غراميشي حول المثقف, حيث يميز بين المثقف التقليدي و المثقف العصري . أي يميز بين المعرفة التي لا تتحول إلى ممارسة و المعرفة التي تتحول إلى ممارسة .

ووفـــق معـــيار الاتـــصال و الانفـــصال عن المجتمع, يرى على الكنز أن المـــثقفين الجزائريين الأوائل عرفوا الانفصال و الانسلاخ عن مجتمعهم منذ البداية , ففـــئة مـــنهم الـــتجأت إلى أبطال شرق أوسطين و إلى طرق تمكنهم من فرض أنفسهم في الحقل الثقافي الجزائري دون أن يكون ذلك عن طريق الانغراس داخل المجتمع المدني. أما الفئة الأخرى , فقد اغترفت من الثقافة الفرنسية الداعية للحريات (31).

و إذا كـــان علـــى الكنز يحدد جهة الدوائر الثقافية التي تأثر بها المثقفون الجزائريون , وفي تحديد هذه الدوائر ؛ فانه يتفق مع طرح" محمد أركون" القائل بـــأن الجزائـــر كانـــت تتأثر في العصور الوسطى بالإشعاع الثقافي في كل من الأندلس تونس ؛ ثم بعد أفول حضارة الأندلس ووقوع الجزائر تحت الاحتلال في القـــرن التاســـع عشر أصبحت فرنسا من أهم مراكز التأثير الثقافي بالنسبة للجزائر . ومن الملفت للانتباه في مقاربة علي الكنز قوله: "انه لمن المدهش حقا أن نلاحظ طيلة المرحلة الممتدة ما بين بداية القرن لغاية اندلاع ثورة التحرير الوطني ســـنة 1954 إن المجتمع الجزائري لم يعرف يقظة ثقافية مثل تلك التي رافقت صعود الوطنية و ظهورها في البلدان الأخرى" (32).

و هـــذا السؤال على قدر كبير من الأهمية,و هو يشبه إلى حد بعيد ذلك السؤال

التاريخي الذي طرحه ماكس فيبر عندما كان يحاول تفسير ظهور الرأسمالية في أوروبا الغربية قبل ظهورها في أسيا . إن علي الكتر لم يحاول الإجابة عن السؤال الكبير الذي طرح, لكنه اكتفى بتحليل انعكاسات انفصال المثقفين الجزائريين عن واقعهم الاجتماعي . و يحدد ذلك في ثلاثة جوانب: (33).

1- عجز المثقفين عن تحويل إنتاجهم الثقافي إلى ثقافة ذات بعد اجتماعي , و عدم قدرتهم على التحول إلى انتيلجانسيا .

2-إن عضوا نية المثقفين الجزائريين انتهت بهم إلى سوء التقدير لأهمية ظاهرة صعود الوطنية في أوساط الجماهير. لقد كانوا متذبذبين حتى عند التحاقهم بحرب التحرير, حيث جاء ذلك متأخرا , مما أثر على مركزهم في الحركة الوطنية.

3-أصبح المثقفون في ظل الدولة الوطنية موظفين , أما الجيل الجديد منهم , فقد تحول إلى قناة قولبها النظام البيروقراطي .

وفي رأيي أن مقاربة علي الكتر تسلط الضوء على جوانب لم يتناولها محمد بوخبزة أو مغنية الأزرق , وهي الأسباب التاريخية التي جعلت من المثقف الجزائري مجرد قناة بين الطبقة التي تحكم و بين الطبقة المحكومة . فإذا كان محمد بوخبزة كشف عن وجود تناقض بين الخطاب الرسمي و الممارسة , و إذا كانت مغنية الأزرق ركزت على تشكل طبقة مهيمنة بسبب بيروقراطية النظام , على الطريقة الستالينية , فان هذه الأسباب لاتسلط كل الضوء على عجز المثقفين الجزائريين عن خلق أفكار تؤثر في العمق الاجتماعي .إن مقاربة علي الكتر تركز على خصوصية تشكل المثقفين الجزائريين التي جعلت منهم طبقة منفصلة عن المحيط الاجتماعي و بالتالي غير قادرة على التأثير . ولعل هذه الصفة مازالت تلازمها إلى اليوم.

و الخلاصة أن المجتمع الجزائري عرف حراكا اجتماعيا كبيرا بفعل حرب التحرير ثم عرف حراكا بعد الاستقلال بسبب تركيز تجربة التنمية على التصنيع . غير أن هذا الحراك كان في الغالب أفقيا ؛ إذ تحول الفلاح إلى عامل في المصنع و

القـــروي إلى حضري .لكن ذلك لم يؤد إلى تقليص الهوة بين الجزائريين كما كان يـــزعم الخطـــاب السياسي وكما بين ذلك محمد بوخبزة بل أنها ازدادت بعد عام 1989 ، أي بعد الشروع في اصطلاحات اقتصادية تخلت بموجبها الدولة عن لعب دور البرجواجـــي الذي يتكفل بتشغيل الجميع . ومثلما أخفقت تجربة التصنيع في تقليص الهوة بين الجزائريين ، فان التحول إلى اقتصاد السوق الذي يهدف إلى خلق مجـــتمع مفـــتوح بدأ يعطي إشارات على أن المجتمع الجزائري يتجه لأن يكون شبه مغلق . فآلية إعادة إنتاج الطبقات الاجتماعية تتجه نحو تركيز نفسها أكثر فأكثر لتصبح مثل القدر الذي لا مرد له .

الهوامش

1-Bourdieu(Pierre) .travail et travailleurs en Algérie .p383

2-Jeanson (Francis et Calette) ,L'Algérie hors la loi , éditions ENAG 1993.p149.

3-Ibid ;p152

4-Ibid ;p149

5- Bourdieu (Pierre) ,op,cit ,p383.

6-عـــبد القادر جغلول , تاريخ الجزائر الحديث , ترجمة ,فيصل عباس دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر ط3 ,1983,ص156.

7-المرجع السابق ,ص156.

8- *Bourdieu (Pierre), op.cit , p383.*

9-هنـــري أرفـــون , فلسفة العمل, ترجمة , عادل العوا. منشورات عويدات , بيروت , باريس , ص ص32- 33

10-op-cit , p384.

11-Ibid ,pp384-385.

12-Gallissot (René) , classes sociales et développement en Algérie depuis

d'édition,

Paris 1978,pp279-306.

13-Ibid ;pp282. 283

14-Ibid :p291.

15-Ibid :p292.

16-Ibid :p296

17-Ibid :p296.

18-مغنـــية الأزرق , نشوء الطبقات في الجزائر، ت /سمير كريم مؤسسة الابحاث العربية , بيروت, 1980 , ص25.

19- المرجع السابق ,28.

20-الرجع السابق, ص 183.

21- المرجع السابق , ص 183.

22-Boukhoubza (M'hammed) ,Ruptures et transformations sociales en Algérie ,O.P.U. Alger 1980,11,p17.

23-Ibid : p18.

24-Ibid :p19.

25- محمد عبد الحميد : نظريات الاعلام و اتجهات التأثير, عالم الكتب , ط1 , 1997 , القاهرة ص 287 .

26-op.cit p271.

28-Ibid :p354.

29-Ibid :p354.

30-Ibid :p271.

30-علي الكتز , حول الأزمة , دار بوشان للنشر , 1990 , ص 15 .

31- المرجع السابق , ص 25.

32- المرجع السابق ,ص 26.

33- المرجع السابق , ص ص 28- 36.